الفصل الأول

بالكلمة.. لا بالقوة يكون التغيير

obeikandl.com

obeikandl.com

بالكلمة.. لا بالقوة يكون التغيير

ليست القوة ـ بمفهومها المادى ـ هى الخيار الأول فى عمليات التغيير الاجتماعى من المنظور الإسلامى.

وإنما تحل محلّها ـ بل وتتقدمها ـ محاولة التغيير بالكلمة التى تتحدد أدوارها:

أولا: فى رصد الواقع الاجتماعى وملاحظة مدى اتساقه مع طبيعة القيم التى ينبغى أن تسوده حسب المنظور الإسلامى، وإن كان ثمة انحراف فما مدى هذا الانحراف، وهل تكفى الكلمة الناصحة لتقويم هذا الانحراف أم لا؟

ثانيا: بالكلمة أيضا يكون التنبيه إلى طبيعة ونوع الخلل الذى حدث فى المجتمع، مع اختيار نوع الكلمة التى تقوم بهذا التنبيه: أهى الكلمة الناصحة؟ أم الكلمة الفاضحة؟

وأيا كان نوعها فهل تمارس النقد العام للأوضاع دون ذكر لرموز الانحراف؟ أم قد يحتاج الحال أحيانا إلى التصريح بدل التلميح؟

* * *

وضبط هذه الأمور وتحديد هذه المجالات للكلمة مرجعنا وأسوتنا فيه تلك المنهجية المبثوثة فى آيات القرآن الكريم والتى وردت بأكثر من وسيلة : فأحيانا يكون عرض قصص السابقين وماجرى منهم وما جرى عليهم وكيف كانت نهاياتهم يوم حادوا وضلوا؟!.

وأحيانا يكون بتقرير سنن وقوانين تطرد أحكامها مثوبة للمصلحين وعقوبة للمفسدين على نحو ماورد بشأن الطغاة، والمفسدين، والمترفين والمنافقين وغيرهم من النماذج.

وأحيانا أُخَرَ يكون بالوصف ورصد القسمات التى إذا توفرت يعتبر أهلها من الصالحين، وإذا تخلفت أو حلت محلها نقائضها يكون أهلها مفسدين.

وبين هذه الاتجاهات تتحرك **«الكلمة» الناصحة أو «الفاضحة» لنختار أسلوبها المناسب لكل حالة.**

* * *

ولقد كان العهد المكى لرسالة الإسلام هو الميدان الأوحد للكلمة تقوم فيه بدورها فى رسم قسمات المجتمع الأمثل كما يكون، ثم فى شرح وتوضيح لماذا هذه القسمات؟ ثم فى التعريف بأسباب الفساد والانحراف، فى عرض واضح لنماذج لها. مما يؤكد دور الكلمة فى تأسيس وتكوين المجتمع، ثم فى التمهيد لتغييره إذا وقع.

وإيثارنا للتغيير بالكلمة ليس اختياراً ذاتيا أو مجرد «وجهة نظر»

لكنه أحد أركان منهجية التغيير الاجتماعى كما يرى القرآن وكما هى فلسفته فى تغيير ما بالنفس وليس تغيير ماهو خارج عنها.

ذلك لأن تغيير الظاهر، أو ما هو خارج النفس البشرية من الأشياء أو الأحداث أو الأشخاص أمر قابل للردة والانتكاس.

أما التغيير الذى يصنع التحول الحقيقى من مناخ الباطل إلى مناخ الحق، ويتم به الانتقال من الظلام إلى النور فهو - كما يقرر القرآن - تغيير «جوانية الإنسان وداخلية نفسه» كما قالت الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١).

وهذا النوع من التغيير هو **ميدان «الكلمة» ومكان عملها، لا يشاركها فيه غيرها، ومن ثم كانت هذه «الكلمة» هى معجزة الرسالة الخاتمة التى حواها القرآن الكريم بين دفتيه.**

* * *

على أن مما تجدر الإشارة إليه والاحتفاء به أن للكلمة القرآنية سلطانها الذى لاتشاركها فيه أى كلمات أخرى للعلماء أو المصلحين، أو المفكرين أو الساسة أو الدعاة.

ذلك لأن كلمة القرآن هى الكلمة المعجزة التى أعجزت أهل اللغة، وستبقى تعجزهم أن يأتوا بمثل «سورة» أو «سورة» أو حتى آيات مما جاءت به، ولذا كان لها تأثيرها العظيم فى كل الذين اعتنقوا الدين الجديد، وامتلأت نفوسهم إيمانا به وتضحية واحتمالا للعذاب عقوبة على استمساكهم به.

(١) سورة الرعد، من الآية: ١١.

ورضى الله عن أولئكم النفر الكريم **الذين ذاقوا صنوف العذاب من المشركين من أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب وسمية** وغيرهم ممن كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمر بهم ويقول لبعضهم: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**[1].

* * *

ولا يغفل التاريخ عن أثر الكلمة القرآنية فى إسلام عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ وتحوله من حالة «أقصى العداء إلى أقصى الولاء» بتأثير كلمات القرآن التى شاءت إرادة الله أن تكون سببا لاستجابة دعوة الرسول أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين فكان هو عمر بن الخطاب الذى كان ـ كما يحدث هو ـ يقترب من الرسول ﷺ يستمع إليه وهو يتلو القرآن فى الكعبة، ويصف عمر أثر الكلمة القرآنية على نفسه فيقول بعد أن استمع: **فرقّ له قلبى ودخلنى الإسلام**.

وتقول رواية أخرى ـ وهى المشهورة فى كتب السيرة ـ :

إنه كان يشتد على من يسلمون، فإذا أحدهم يقول له : بدل أن تشتد علينا اذهب إلى أختك فقد صبأت.

ويذهب مغيظا إلى أخته وتكون معها ومع زوجها أمور تنتهى بأن يمسك عمر بالصحيفة التى كانوا يقرأونها فيطالع آياتها ثم يقول لهم: دلونى على محمد حتى أعلن إسلامى!!

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٥٩.

وإذا كان هذا أثر الكلمة القرآنية فى الأشخاص والرجال الكبار من مستوى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فتأثيرها فى الانتقال بالمجتمع المكى ـ ثم المدنى ـ من حال البداوة إلى حال أصبحت فيه للمسلمين دولة ذات شأن عزيز وعظيم كان أكثر وضوحًا ودلالة.. لأنه بالكلمة القرآنية بنيت هذه الدولة.

وبالكلمة القرآنية أيضًا حكمت وأحكمت أركانها طالما كان الالتزام قائما بوحى وتوجيه هذه الكلمة، فلما تراخت عنها قبضة العقول والأفئدة ترنحت الدولة المسلمة واعتراها من الضعف ما انحرف بها رجالا ونظاما عن المنهاج فظهر فيها الترف المفسد، والأنانية الفردية، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، مما كان حتما أن يؤدى إلى الضعف والتمزق وانفراط عقد الأمة وصيرورتها فى عصور الجزر السياسى المعروف إلى ما صارت إليه.

* * *

دور الكلمة ومراحل التغيير:

من هنا نأخذ فى عرض شديد الإيجاز لصورة قسمات المجتمع المسلم عند الالتزام بالمنهجية كما يحددها القرآن، ثم نأخذ فى رصد حالات ونماذج الفساد وما يكون لها من آثار، ثم نقف أمام دور الكلمة فى الدعوة إلى التغيير من خلال نقد وتعرية حالات ورموز هذا الفساد راسمة طريق الإصلاح والانتقال الرشيد الآمن بالمجتمع إلى ما ينبغى أن يكون عليه.

ومما تجدر ملاحظته أن الواقع الجاهلى الذى بدأت رسالة الإسلام

بنقده وتغييره ليس فقط مجتمع الجاهلية العربية بما يعنى أن المنهجية التى استخدمت فى تغييره لم تعد صالحة لتغيير المجتمعات المعاصرة، وإنما هو نموذج لأى مجتمع يظهر فيه مثل ما كان فى الجاهلية القديمة كتأليه غير الله، والانحراف عن سواء الفطرة، والإفساد فى الأرض وغيرها؛ لأن هذه جميعا ليست وقفا على الجاهلية العربية ولكنها قابلة للتكرار عبر الزمان والمكان، لأنها بعض نقائص الطبيعة البشرية وإن اختلفت الصورة، والواقع المعاصر شاهد على ذلك، ففى زماننا ـ كما كان فى الماضى ـ «فراعنة» و«قوارين» و «هامانات» و «شذاذ» لا يحصون، وحكام ﴿طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾(١).

وعليه فإن «المنهجية» التى مارسها القرآن فى عملية التغيير كانت وستبقى صالحة لتحقيق النتيجة نفسها التى أحدثتها فى المجتمع الجاهلى بعد ظهور الإسلام.

* * *

(١) سورة الفجر، الآيتان : ١١ ، ١٢.